Arabic Language & Literature **https:// journals.ut.ac.ir/**
Vol. 18, No. 2, Summer 2022 **Print ISSN: 1735-9767**
Manuscript Type: Research Article **Online ISSN: 2423-6187**
DOI: 10.22059/jal-lq.2021.326481.1176

The Hebraization of collective memory in Ghassan Kanafani's novel "Returning to Haifa" (A study in the light of cultural criticism)

Tawfiq Rezapour Mohaiseni1, Hossein Mohtadi[2]*

1. PhD student in Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr, Iran
2. Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, Persian Gulf University, Bushehr, Iran

(Received: July,01, 2021; Accepted: November,22, 2021)

Abstract

The Occupying countries resort to erasing the collective memory to solve a particular problem in a geographical area where a language prevails, as is the case in Palestine. Its most important tool is language because it is closely related to collective memory. After the Hebrew language disappeared and died with the Babylonian displacement (567 BC), the Jewish collective memory almost ended ;but this language has returned to form a new memory in the period of the British Mandate. However, the linguistic planning is working to create a false memory by deleting the Palestinian memory. The operation to Hebrewize the Palestinian collective memory can be summarized in three cases, first: bringing settlers to Palestine, seizing land and building settlements, second: getting rid of Arabs and destroying their communities, and third: changing the Arab identity of the place/structure, image and interactions.this study, by relying on the descriptive-analytical method and in the light of cultural criticism, attempts to monitor the cases of Hebraicization of collective memory in the novel “Returning to Haifa” to reveal the most important factors that have eroded the Palestinian collective memory. One of the most important findings of our study is that Ghassan Kanafani emphasized the preservation of collective memory and its transmission to future generations and its preservation from loss and extinction.

Keywords

cultural criticism, collective memory, back to Haifa, Ghassan Kanafani.

*** Corresponding Author, Email:** mohtadi@pgu.ac.ir

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٨ ، العدد ٢ ، الصيف ٢٠٢٢م
صفحة ١٨٣ – ٢٠٥ (مقالة محكمة)

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

عبرنة الذاكرة الجمعية في رواية "عائد إلى حيفا" لغسّان كنفاني (دراسة في ضوء النقد الثقافي)

توفيق رضاپورمحيسني[١]، حسين مهتدي[٢]*

١. طالب دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة خليجفارس، بوشهر، إيران
٢. أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة خليجفارس، بوشهر، إيران

(تأريخ الاستلام: ٢٠٢١/٠٧/٠١. تأريخ القبول: ٢٠٢١/١١/٢٢)

الملخّص

تلجأ الدول المحتلة إلى محو الذاكرة الجمعية لحل مشكلة خاصة في منطقة جغرافية تسودها لغة ما ،كما هو الحال في فلسطين؛ وأهم أداة لذلك هي اللغة لأنها ترتبط ارتباطا وثيقًا بالذاكرة الجمعية. فبعد أن اختفت اللغة العبرية وماتت مع التهجير البابلي (٥٦٧ ق.م) انتهت الذاكرة الجمعية اليهودية تقريبًا ، ولكن عادت هذه اللغة لتشكل ذاكرة جديدة في فترة الانتداب البريطاني بعد سقوط الدولة العثمانية. كان معظم الوافدين إلى فلسطين يجهلون اللغة العبرية ولا تربطهم بالمكان صلة لذا لم تكن لديهم ذاكرة جمعية إلا أن التخطيط اللغوي هنالك عمل على إنشاء ذاكرة مزيفة من خلال حذف الذاكرة الفلسطينية. انطوت عملية عبرنة الذاكرة الجمعية الفلسطينية على ثلاثة أنواع رئيسة للممارسة الصهيونية ، أولاً: جلب المستوطنين إلى فلسطين والاستيلاء على الأراضي وبناء المستوطنات ، ثانيًا: التخلص من العرب وتدمير تجمعاتهم ، وثالثًا: تغيير الهوية العربية للمكان/ بنية وصورة وتفاعلات. تحاول هذه الدراسة بالاعتماد على المنهج التحليلي – الوصفي وفي ضوء النقد الثقافي رصد حالات عبرنة الذاكرة الجمعية في رواية "عائد إلى حيفا" لغسّان كنفاني للكشف عن أهم العوامل التي نخرت الذاكرة الجمعية الفلسطينية. ومن أهم النتائج التي خلصت إليها دراستنا هي :أن غسان كنفاني كان يؤكد ضرورة الحفاظ على الذاكرة الجمعية ونقلها للأجيال القادمة وصيانتها من الضياع والاندثار ، وأن روايته "عائد إلى حيفا" عالجت أزمة الذاكرة التي عانى منها الإنسان الفلسطيني منذ حزيران ١٩٤٨م في ظل الصراع العربي الإسرائيلي.

الكلمات الرئيسة

النقد الثقافي ، الذاكرة الجمعية ، عائد إلى حيفا ، غسّان كنفاني.

* الكاتب المسؤول
Email: mohtadi@pgu.ac.ir

مقدمة

بدأ التفكير بعبرنة الذاكرة الجمعية الفلسطينية مع إنشاء "صندوق استكشاف فلسطين"(Palestine Fund Exploration) في نهاية القرن التاسع عشر الذي إذ أخذ يوفد مهندسين من الضباط العسكريين للقيام بأعمال المسح والتنقيب في فلسطين ، وقد جمعوا أسماء المواقع القديمة والقرى ، وأعدّوا قوائم للأسماء تتضمن أكثر من ١٠آلاف اسم دُوِّنت باللغة الإنجليزية. وإن محاولات الكيان الإسرائيلي تفريغ الذاكرة الجمعية الفلسطينية وعبرنتها نفذت بتهجير غالبية الشعب الفلسطيني إلى خارج وطنه وتغيير الأسماء من العربية للعبرية حيث عمد إلى عبرنة كل أثر يدل على الهوية العربية للبلاد وعلى ارتباط شعب فلسطين بها بطريقة لم يسجل لها في التاريخ مثيلاً ، بالمعايير الكمية والنوعية ، وقد أوردت في الكتب الدراسية الأسماء العبرية للمعالم الفلسطينية ، وطالبت التلاميذ والمعلمين ، حتى العرب منهم ، بعدم استخدام الأسماء العربية لتلك المعالم. وكانت عملية العبرنة هذه مؤطرة بأطر غير إنسانية أو أخلاقية ، وتتصف بالقسوة والعنف وإلغاء الإنسان الفلسطيني العربي فتم تغييب الانسان واللغة.

إنَّ الأدب هو أقوى سلاح للتعبير عن آلام ومعاناة الفلسطينيين وهو وسيلة إعلامية قويَّة مؤثرة في الوجدان الإنساني ، فالعالم لم يعرف فلسطين من خلال غسان كنفاني ومحمود درويش وغيرهما ولا يهتم كثيرًا للإحصائيات والأرقام التي تقدم اليوم وتنسى بعد أيّام. تعدُّ الروايات الأدبية أكثر صدقا من كتب التاريخ. ولأنَّ الكيان الإسرائيلي ، يفعل ما في وسعه من أجل طمس الهوية الفلسطينية ، وعبرنة الذاكرة الجمعية ، فإن تأليف الروايات بمضامين ترتبط بالقضية الفلسطينية والتاريخ الفلسطيني المعاصر ، يظل حائط الصد الأخير أمام معاول الاحتلال. فكتابة ما حدث وذِكر التهجير وتوطين الأجانب الوافدين من قارات العالم ، وتدوين أسماء القرى المهدمة والمدن التي هُجّر أهلها قسرا من أجل بناء المستوطنات ، يُعد واجبا تاريخيا ، وفرض كفاية على الأدباء الفلسطينيين وذلك من أجل دوام إحياء القضية الفلسطينية وتعريف الأجيال الجديدة بها ، وبمقاومة الشعب الفلسطيني والتأكيد على حق اللاجئين -الذين أُجبروا على الشتات- في العودة ، ومن أجل إذكاء نيران القضية في القلوب ، كي لا تنطفئ ويُصبح الاحتلال فعلا عاديا ، ويُصبح المحتل الغاصب ، جارا ورب عمل وزميل دراسة.

هذه الدراسة بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي تحاول أن ترصد التحديات التي تواجهها الذاكرة الجمعية الفلسطينة في رواية "عائد إلى حيفا" للكاتب الفلسطيني غسان

كنفاني. وتهدف إلى تتبع علاقة الكاتب غسان كنفاني بالذاكرة الجمعية كما تهدف أيضًا إلى التعرّف على طبيعة البواعث التي دعت كنفاني إلى توثيق علاقته بالذاكرة فضلاً عن كشف سبل توظيف الذاكرة وماتنطوي عليه من معان ودلالات. وستحاول هذه الدراسة أن تجيب عن الأسئلة التالية:

كيف تجلّت الذاكرة الجمعية في سرد غسان كنفاني؟

كيف عبّر غسان كنفاني عن موقفه من عبرنة الذاكرة الجمعية؟

ماهي العوامل التي نخرت الذاكرة الجمعية الفلسطينية؟

خلفية البحث

للذاكرة أهمية كبيرة في الأدب العربي ، ومن خلال البحث في المكتبة الأدبية العربية نستطيع أن نلمس هذه الأهمية في الأعمال الأدبية العربية التي نجد فيها حضورًا ضخمًا للذاكرة ، خاصة ضمن أجناس أدبية ذاكرية ، مثل السيرة الذاتية ، والرواية التاريخية وأدب الرحلات. لكن في مقابل هذه الأعمال الإبداعية الزاخرة بموضوع الذاكرة ، نادرًا ما نجد دراسات نقدية ذاكراتية صريحة في تعاملها المنهجي مع الظواهر الأدبية – الذاكرية العربية ، وقليلاً ما تدرج العلوم الأدبية العربية ثيمة الذاكرة ضمن أجندتها البحثية ، بخلاف ما هو سائد حاليًا على مستوى البحث الأدبي العالمي. تحيل نتيجة البحث ، من خلال "ذاكرة جمعية" ، على عدد من الدراسات المختلفة:

دراسة "من التاريخ إلى الرواية الذاكرة الجمعية مصدرًا للسرد" ، لإدريس الخضراوي ، مجلة تبيّن ، صيف ٢٠٢٠ ، العدد ٣/٩ : يمثّل هذا البحث محاولة لدراسة العلاقة بين السّرد والتاريخ والذاكرة الجمعية. و دراسة "الذاكرة الجمعيّة موضوعًا للبحث التاريخي" ، لياسين اليحياوي ، مجلة أسطور ، العدد ٧ ، يناير ٢٠١٨م: تسعى لدراسة تطوّر الأبحاث حول "الذاكرة الجمعيّة"؛ كونها موضوعًا تاريخيًّا فرض أهميّته في عديد من أدبيّات المدرسة التاريخية الفرنسية. وكذلك دراسة "نظريات الذاكرة الجمعية وتطورها في ميادين العلوم الإنسانية" ، لزهير سوكاح ، مجلة دراجومان. مج ٣ ، العدد ٥ ، ٢٠١٥م: تنفرد هذه الدراسة بتقديم نبذة كرونولوجية و نظرية عن نشأة وتطور مفهوم "الذاكرة الجمعية" ، وهي أيضا بهذا المعنى تعاطٍ تنظيري مع هذا المفهوم كبناء تنظيري يتسم بالديناميكية والإبداعية ويشهد إلى يومنا هذا امتدادا وتطورا متواصلين في حقول معرفية متنوعة.

وكذلك دراسة "السياسة والذاكرة الجمعية: علاقة تنافر أم تجاذب؟" ، لزهير سوكاح ، مجلة الناقد للدراسات السياسية ، صص ٣٨-٣٥: تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العلاقة القائمة بين حقلي "السياسة" و"الذاكرة الجمعية" عن طريق عرض ومناقشة أهم المنطلقات التنظيرية التي عالجت هذه العلاقة من منظورات علمية متنوعة ، وعلى رأسها كتابات كل من موريس هالبفاكس (الذاكرة الجمعية) ، وبول ريكور (الذاكرة المُتلاعب بها) ، ويان أسمان (الذاكرة الحضارية) ، وهلموت كونيش (الذاكرة السياسية).

أما حول رواية "عائد إلى حيفا" فكتبت بعض الدراسات منها: رسالة "البنية السردية في رواية عائد إلى حيفا لغسان كنفاني" قدمتها الطالبة سمراء قفي إلى كلية الآداب واللغات في جامعة محمد بوضياف بالمسيلة لنيل درجة الماجستير: تحاول هذه الدراسة البحث عن طبيعة البنية السردية عند غسان كنفاني وعن أسرار خطابه الروائي وفك طلاسمه من خلال بنياته المختلفة ، ورسالة "رواية عائد إلى حيفا لغسان كنفاني (دراسة بنيوية تكوينية)" للطالب أسيف أحمد صدّيق مقدمة إلى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للحصول على الدرجة الجامعية الأولى (S.S.I) في جامعة شريف هداية الله الإسلامية الحكومية بجاكرتا: تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العناصر الداخلية والعناصر الخارجية التي تبنى عليها رواية "عائد إلى حيفا" ، ولمعرفة رؤية العالم للمؤلف المنعكسة فيها.

وكذلك دراسة "بناء الشخصية في رواية «عائد إلي حيفا» لناصر بركة ، مجلة تاريخ العلوم ، العدد ٥ ، ٢٠١٦م: تأتي هذه الدراسة لتبحث في كيفية بناء الشخصية وطرائق تشكيلها ضمن نطاق انتمائها الاجتماعي والثقافي الذي يحدده الفضاء الزمكاني في رواية (عائد إلى حيفا).

ولا نكاد نجد في الميدان البحثي العربي أي نتاج في إطار دراسة روايات غسان كنفاني من هذا الباب ، ولا توجد إلى حد الآن أي دراسة عربية متخصصة في هذا الصدد. لقد كان خلوّ المجال من بحث متخصص ، فضلاً عن بكارته وخصوبته هو الحافز الأوّل لاختيار الذاكرة الجمعية موضوعًا لهذه الدراسة.

الإطار النظري للبحث

الذاكرة الجمعيّة

في الواقع ، منذ السنوات الأخيرة من القرن العشرين ،أطلت على العالم أحداث مختلفة ، منها :نمو التعددية الثقافية ، وظهور وسائل الإعلام الجديدة ، والظهور المتفجر لحركات

ومنظمات التراث الثقافي، وانحسار الشيوعية وما تلاه من إعادة تقييم للقيم الوطنية السابقة في الديمقراطيات الحديثة مهدت لاهتمام واسع من قبل الجمهور في موضوع "الذاكرة" (Kaamen, 1995:252) . في العهد المعاصر، أصبح موضوع "الذاكرة الجمعية" واحدًا من أهم القضايا الاجتماعية، على الرغم من أنَّ الاهتمام بالذاكرة الفردية كقدرة عقلية لتذكر الأحداث والتجارب الماضية له سجل طويل. مفهوم الذاكرة الجماعية كنشاط يتم فيه استدعاء الأحداث على مستوى المجتمع "خارج الفرد" بواسطة مجموعة معينة.

إن ما ساهم بشكل كبير في النمو المذهل لأبحاث الذاكرة الجماعية هو اتساع نطاق الموضوع وتنوع الأساليب النظرية المستخدمة فيه. الذاكرة الجمعية باعتبارها "لبنة بناء المجتمعات" (Assmann, 1992: 293)، و"الوسيلة الرئيسية التي تتشكل بها الهويات الاجتماعية" (Mistzal, 2003: 1) تتضمن مجموعة واسعة من الممارسات والأعمال الثقافية التي يمكن استكشاف تطبيقاتها المتنوعة في مجموعة واسعة من الموضوعات، من القومية والتاريخ والعلوم والسياسية إلى الدين والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. من ناحية أخرى، أدى هذا التعقيد والتنوع إلى استنتاج بعض الباحثين أن مجال دراسات الذاكرة الجمعية هو في الأساس متعدد التخصصات، لا مركزية فيه، ولا نموذجية.

تعود أهم الأعمال التي لعبت دورًا رئيسًا في ظهور وتطوير النهج الاجتماعي للذاكرة إلى "موريس هالبواكس" فهو بالإضافة إلى إدخال مفهوم "الذاكرة الجمعية"، من خلال تأليف ثلاثة كتب مؤثرة في هذا المجال، فقد ترك هالبواكس إرثًا قيمًا لتقديم أمثلة أو نماذج بحثية للباحثين من بعده. هذه الكتب هي: " الأُطُر الاجتماعية للذاكرة" وضح فيه أهمية الذاكرة الجمعية التي تدير الأنظمة الأسرية والدينية والاجتماعية. وكتاب" التضاريس الأسطورية للأناجيل في الكتب المقدسة" و"الذاكرة الجمعية" طرح فيه فرضية أن المجتمع يمكن أن يمتلك ذاكرة جمعية وأن تلك الذاكرة تعتمد على الإطار الذي تعيش ضمنه مجموعة معينة في المجتمع.

على الرغم من إهمالها لفترة طويلة، أصبحت هذه الكتب بعد إقبال الباحثين على الذاكرة الجماية، شائعة جدًا لدرجة صارت تعتبر الآن من الكتب الكلاسيكية في علم الاجتماع.

في كتاب "الذاكرة الجمعية" (١٩٥٠)، يقدم هالبواكس مثالاً آخر للعمل في مجال الذاكرة الجماعية، والذي يقوم على التمييز بين "ذاكرة السيرة الذاتية" و"الذاكرة التاريخية" و"الذاكرة الجمعية" و"التاريخ". من خلال تقديم هذا التمييز، يحاول هالبواكس

تنظيم مجال أبحاث الذاكرة الجمعية نظريًا. في الواقع ، جوهر مفهوم الذاكرة الجمعية في نظرية هالبواكس هو التناقض الذي يؤسسه بين ذاكرة السيرة الذاتية والذاكرة التاريخية (Halbwachs, 1980: 50-52).

الذاكرة الجمعية والهوية

الهوية هي كيفية تعريف الفرد لذاته ، وهي حقل متعدد الأبعاد ، ذو طبيعة جدلية يضم متناقضات واختلافات تتحرك داخل عملية صيرورة؛ فبهذا المعنى الذي نستمده من حقل الهوية المتعدد والمختلف ، منه يحدد كل شخص موقعه الخاص داخل العملية الاجتماعية ، أو على الأقل انطلاقا منه يتحدد موقعه. نظرا لهذا التشابك الموجود بين الذات وحقل الهوية ضمن السياق الاجتماعي العام ، فإنه كلما أضيف عنصرٌ إلى هذا الحقل ، أو مسه من قريب أو بعيد ، فإنَّ الذات والسياق العام الذي ينتمي إليه ينفعل بالضرورة بهذا العنصر ، أو يتفاعل معه حسب منطق الصراع والاختلاف الذي يميز حقل الهوية (افاية ، ١٩٨٨م:٢٢).

لا يكاد يكون هناك حديث عن الذاكرة الجمعية دون التطرق إلى الهوية حيث إنه وحسب هالفاكس ، فإن عملية التذكر الفردي ، لا يمكن أن تنشأ إلا وسط إطار اجتماعي وبالتفاعل مع آخر يعيش في هذا المجتمع (Assmann, 1995: 125). وهو ما يؤسس لاحقًا لنسق جمعيّ يجعل «الخبرات والتجارب الذاتية للفرد قابلة للتذكر والتأويل بورة جمعية ، ويسمي هالفاكس هذا النسق التذكري الجمعي "الذاكرة الجمعية"»(كوساح ، ٢٠١٥ م:١٢٩). وبحسب تصوّر هالفاكس فإن وجود مثل هذا النسق يعد شرطًا أساسيًا لوجود جماعة ما ، حيث أن هذه الجماعة تعبر عن هويتها عبر فعل التذكر الجمعي (كوساح ، ٢٠١٨ م:١٣٣).

الأدب والذاكرة

يُعتبر الأدب اليوم وسيطًا محوريًا من وسائط الذاكرة الجمعية؛ «ذلك أنّ له دورًا حاسمًا في تكوين الذاكرة الحضارية. لهذا ، صار مبحث الذاكرة لا يربط بين العلوم الأدبية والعلوم الثقافية فحسب ، بل أصبح يؤسس لحوار متعدد التخصصات بين العلوم الأدبية والعلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية وعلم النفس أيضًا» (سوكاح ، ٢٠٢٠م: ٤٨). تقدم إرل تصنيفًا يقسم الأبحاث الأدبية حول الذاكرة إلى خمسة توجهات بحثية رئيسة (Erll, 2010: 288) ، يمكن تلخيصها بما يلي:

أبحاث فنون الذاكرة في دراسات تاريخ الأدب: يهتم هذا الاتجاه بدراسة تقنيات الحفظ القديمة في الغرب التي وُظفت في آداب القرون الوسطى ، وفي الفترة الأولى المبكرة من العصر الحديث. (سوكاح ، ٢٠٢٠م:٤٦).

أبحاث التناص بوصفه ذاكرة الأدب: مفهوم ذاكرة الأدب هنا مجازي إلى حد بعيد ، ويقصد به أنه عبر التناص Intertextuality يتذكر نص أدبي معين نصًا أو نصوصًا(سوكاح ، ٢٠٢٠م:٤٦).

النص الأدبي بوصفه نصًا جمعيًا – معياريًا: يتيح هذا التوجه معرفة وظائف الأدب من جهة كونه نظامًا رمزيًا اجتماعيًا ، ومن ثم كيفية تشكّل هوية جمعية وبروزها في نصوصه التي تسميها أليدا أسمان "النصوص المُعاد استعمالها"؛ بسبب احتوائها منظومة القيم والهوية التي تعتبرها ثقافةٌ ما معيارًا لها(سوكاح ، ٢٠٢٠م:٤٦).

تمثلات الذاكرة في الأدب: يعالج هذا التوجه البحثي المهم تمثلات الذاكرة والتذكر في النصوص الأدبية ، ولا يخفى مدى اتساع هذا التوجه؛ بسبب فيض الدراسات الأدبية التي تهتم بتحليل الذاكرة في النصوص الأدبية ، عبر منهج تحليل المحتوى السردي ، مرورًا بتحليل الخطاب المُضمّن في النصوص الأدبية ، ووصولاً إلى دراسات التحليل النفسي الأدبي لتمثلات الصدمة النفسي (سوكاح ، ٢٠٢٠م:٤٧).

الأدب بوصفه وسيطًا للذاكرة الفردية والجمعية: صار الأدب يعتبر اليوم وسيطًا محوريًا من وسائط الذاكرة ، سواء الذاكرة الفردية أو الجمعية؛ ذلك أنّ له دورًا حاسمًا في تكوين الذاكرة الحضارية. لهذا ، صار مبحث الذاكرة لا يربط بين العلوم الأدبية والعلوم الثقافية فحسب ، بل أصبح يؤسس لحوار متعدد التخصصات بين العلوم الأدبية والعلوم التاريخية والعلوم الاجتماعية وعلم النفس أيضًا(سوكاح ، ٢٠٢٠م:٤٧).

النقد الثقافي

النقد الثقافي ظاهرة أدبية رافقت مابعد الحداثة في مجال النقد. وقد جاءت هذه الظاهرة كردة فعل على النظريتين البنيوية والشكلانية ، والمعروف عن هاتين النظريتين الاعتناء في الظاهر والشكل والجماليات الفنية. و«نظرا لاتساع مفهوم الثقافة وانفتاحه على كل شيء تقريبًا ، فان حقل الدراسات الثقافية/ النقد الثقافي ، يؤدي وظيفته من خلال الاستعاره ، من مختلف فروع المعرفة مثل: علم الاجتماع ، الأنثروبولوجيا ، علم النفس ، اللغويات واللسانيات ، النقد الأدبي ، نظرية الفن ، الفلسفة ، العلوم السياسية ، علوم الاتصال وغيرها . ذلك أن الدراسات الثقافية ليست نظاما وإنما هي مصطلح تجميعي لمحاولات عقلية مستمرة ومختلفة ، تنصب على مسائل عديدة ، وتتألف من أوضاع سياسية وأطر نظرية مختلفة ومتعددة» (بعلي ، ٢٠٠٨ م:١٩).

يتكوّن النقد الثقافي من قسمين: ثقافة ونقد منسوب إليها؛ وهو «فرع من من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وماهو كذلك سواء بسواء» (الغذامي، ٢٠٠٥م، ٨٣)، وتدخل دراسة الذاكرة الجمعية ضمن النقد الثقافي الذي هو «ليس منهجًا بين مناهج أخرى أو مذهبًا أو نظرية كما أنه ليس فرعًا أو مجالاً متخصصًا بين فروع المعرفة ومجالاتها بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على دراسة كل ما تفرزه الثقافة من نصوص سواء أكانت مادية أو فكرية، ويعني النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلاً تولد معنى أو دلالة» (قنسوة، ٢٠٠٧م:٧)

«اهتمت الدراسات الثقافية/ النقد الثقافي، بجملة من العناوين والقضايا البارزة، أمثال: ثقافة العلوم ،وتشمل التكنولوجيا والخيال العلمي، وثقافة الصورة والميديا، وصناعة الثقافة، والثقافة الجماهيرية، والأنثروبوجية النقدية الرمزية المقارنة، والتاريخانية الجديدة، ودراسات سياسة العلوم، الدراسات الاجتماعية، الاستشراق، خطاب مابعد الاستعمار، نظرية التعددية الثقافية، والدراسات النسوية والجنسوية، والنقد الإيكولوجي/ ثقافة البيئة، وثقافة العولمة» (بعلي،٢٠٠٨ م:١١). ووفقًا لما ورد أعلاه فالنقد الثقافي هو النقد الذي يتعامل مع الأدب الفني والجمالي باعتباره ظاهرة ثقافية مضمرة أي لا يتعامل مع النصوص الفنية على أنها رموز جمالية.

عبرنة

العبرنة كلمة مشتقة على صيغة فعلنة من عَبَّرَ الشيءَ أي صيره عبريا، قياسا بالتعريب، وفعلنة صيغة صرفية مَرِنَة في توليد مفردات حديثة بالعربية المعاصرة، وكان قرار لجنة الأصول في مجمع اللغة بالقاهرة؛ قبول ما يشيع على ألسنة المثقفين من نحو: عَلْمَنَ، وعَضْوَن، وعَقْلَن، ومصادرها، وما يشتق منها، على أن تعدّ النون زائدة (الأقطش، ٢٠١٠م، ٦٣). والمقصود من العبرنة هنا إعطاء صورة عبرية للأماكن والمُقدسات والشوارع، وكذلك أسماء المدن والقرى والمناطق الأثريّة وبخاصة تغيير اسم العلم من اسم غير عبري لاسم عبري ضمن خطة منتظمة لطمس الهوية الفلسطينية، وذلك من أجل تعزيز الرواية الإسرائيلية، وقلب الحقائق التاريخية فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، ولتعميم استعمال اللغة العبرية في أرجاء فلسطين وفي مختلف مجالات التواصل لتكون أساسًا لوحدة الوافدين الفكرية والسياسية ولتذويب اللغات التي كان يتكلم بها

الوافدون وهي عملية لخدع هؤلاء وتجريدهم من تراثهم وثقافتهم وتفريغ ذاكرتهم كالشعب الفلسطيني التي مورست عليه هذه السياسية. وتتم عملية العبرنة بعد عملية التخطيط اللغوي Language planning، والتي يطلق عليها أحيانا تعبير الهندسة اللغوية Linguistic engineering وهي من فروع اللسانيات الاجتماعية والذي يهتم بعلاقة اللغة في المجتمع و«يضطلع بالتخطيط اللغوي عادة كيانات متخصصة، ومؤسسات، وأكاديميات وأحيانا الأفراد أنفسهم. ويرتبط التخطيط اللغوي بشدة بمفهومين متكاملين، هما السياسة اللغوية Language policy، والاتجاهات اللغوية Languages attitudes. ويمارس التخطيط اللغوي لحل مشكلة خاصة في منطقة جغرافية تسودها لغة ما. رغم ذلك، تتعرض اللغة المختارة لمنافسة اللغات الأخرى. وليست عملية التخطيط لغوي بالعملية السهلية، لذا يطلق عليها أحيانا المعالجة اللغوية» (عبد العظيم، ٢٠١٢م:٢).

ملخص الرواية

"عائد إلى حيفا" من الروايات العربية المهمّة للأديب الفلسطيني غسّان كنفاني. ألفها في عام ١٩٦٩م، واستخدمها لرسم صورة عن حياة المهجّرين الفلسطينيين خلال نكبة سنة ١٩٤٨م التي هجّرتهم عن أراضيهم، وجعلتهم يواجهون القتل الوحشي على يد العصابات الصهيونية، وما رافقه من تدمير للكثير من القُرى الفلسطينية، ثمّ يكمل كنفاني سرد الأحداث ليجمع ويوضح عدّة أفكار معًا، وأهمها الفراق والعودة وهما الفكرتان الأساسيتان اللتان تجسدتا في شخصيات الرواية.

"عائد إلى حيفا" ربما تكون في نصها عملاً أدبيًا روائيًا، إلا أنها في نصها الإنساني تجربة عاشها غسان كنفاني، تجربة جرح وطن، وعذاب إنسان عانى قهرًا وظلمًا وحرمانًا وتشردًا، الّا أنه دائمًا وأبدًا يحمل أمل العودة إلى ذاك الوطن الساكن في الوجدان. في "عائد إلى حيفا" يرسم غسان كنفاني الوعي الجديد الذي بدأ يتبلور بعد نكبة ١٩٤٨م. إنها محاكمة للذات من خلال إعادة النظر في مفهوم العودة ومفهوم الوطن. استخدم كنفاني شخصيتين رئيسيتين، هما سعيد وصفية اللذان فقدا ابنهما خلدون أثناء هجوم القوات الصهيونية على مدينة حيفا؛ حيث تركت صفية خلدون داخل المنزل في حي الحليصة، وخرجت تبحث عن زوجها، وبعد أن عثرت عليه لم تتمكّن من العودة إلى المنزل لأخذ طفلها؛ بسبب إغلاق الطرق وتدافع النّاس للهرب.

بعد عام ١٩٦٧ م أتى هدوء نسبي وساهم في فتح الطرق والمعابر بين المناطق والمدن الفلسطينية وكانت حيفا واحدة منها ، فقرر سعيد وصفية العودة إلى منزلهما في حيفا علّهما يجدان خلدون بانتظارهما. وعندما دخلا حيفا كانت المفاجأة بعد وصولهما إلى منزلهما واكتشاف الحقيقة المُرّة ، وهي أن عائلة يهودية استولت على منزلهما وابنهما ، وتغيّر اسم خلدون إلى دوف.

عبرنة ذاكرة المكان

يعد المكان الجغرافي في الرواية الفلسطينية أحد أهم الخصائص البنيوية في النص ، ومكون من مكونات هوية النص الروائي الفلسطيني ، ولذلك عمد الروائيون الفلسطينيون إلى صياغة الأماكن والمعالم المحملة بصور مثالية إنسانية. إن الكيان الإسرائيلي بدأ تغيير أسماء المناطق والأودية والتلال وحتَّى الشوارع من العربية إلى العبرية ، وهدف من ذلك إلى مصادرة الجغرافيا الفلسطينية ، وتهويد ذاكرة المكان وغرس المفاهيم والمصطلحات اليهودية التوراتية في الجيل الصاعد وفي عقول السياح الوافدين وإضفاء صبغة دينية على كل فلسطين وأبرزها القدس. «أن تهويد فلسطين يجسد جميع المنطلقات العنصرية والعدوانية للصهيونية ، ويكشف محاولات التضليل والخداع التي روجها الصهيونيون حول علاقتهم بأرض فلسطين ، بدعم كامل من الدول الأوروبية الغربية ، ومن ثم فإن تهويد فلسطين يعبّر عن الظلم الاستعماري الغربي الذي لحق بالشعب الفلسطيني خصوصًا والأمة العربية بوجه عام» (عبدالكريم ، ٢٠٠١م:١٢). يساهم المكان بشكل فعال في خلق رؤية الإنسان وسلوكه وماهو عليه ، وهذا ما يؤكده كنفاني في روايته ، فقد ظهر المكان جليًّا للمتلقي يبين تفاصيل المدن الفلسطينيّة بروحها وتناغمها نحو الحوار الذي يدور بين سعيد وزوجته على أبواب حيفا ، قالت صفية : «لم أكن أتصور أبدًا أنني سأراها مرةً أخرى» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٢) فعبَّر سعيد عن الواقع الجديد بقوله لصفية: «أنت لا ترينها ، إنهم يورونها لك»(كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٢). الحوار يعكس الواقع الجديد الذي صاغه الكيان الصهيوني ، واقع يَفرضُ على الفلسطيني صاحب الأرض أن يقطع مسافات طويلة ويمر على حواجز كثيرة ، لقد بدأت إسرائيل احتلالها بسرقة الأرض وجعل أهلها أغراب عليها.

سياسة تغيير أسماء المدن

تعد أسماء المدن والقرى من موضوعات اللغة التي هي من الركائز الأساسية للجغرافيا الحضارية ورغم ذلك ، تقع دراستها حاليا عند هامش اهتمام الأكاديميين من

الجغرافيين. ورغم أن اللغة هي ناقل الثقافة والهوية ، إلا أنها لم تلق ما تستحقه من دراسة جغرافية ، وبينما نجد أن دراسة التركيب الداخلي للغات هو اهتمام العالم اللغوي؛ فإن الهم الأول للجغرافي هو التحليل المكاني للغات وللجماعات المتحدثة.

لم تكتف الحركة الصهيونية بالاعتداء على الإنسان والأرض ، بل استهدفت أسماء القرى والمدن الفلسطينية؛ «لأن الاسم يحمل ذاكرة المكان الجمعية للشعب الفلسطيني ، فأرادت الحركة الصهيونية محو الذاكرة ، وطمس الهوية وتزييفها. وباعتراف أحد أعضاء لجنة الأسماء الرسمية في إسرائيل ، يؤال إليتسور ، فإن أكبر اعتداء ، في تاريخ فلسطين ، هو ما اقترفته الحركة الصهيونية تجاه أسماء المواقع الجغرافية؛ إذْ محت الأسماء القديمة ، ووضعت مكانها أسماء ، لا علاقة لها بتاريخ المكان .بينما حافظ العرب ، منذ الفتح العربي الإسلامي ، عليها كما هي ، من غيرتغيير أو تزييف» (أبو خضير ، ٢٠١٦م:٣٥٥).

وقد صنّف ابراهيم عبدالكريم عبرنة الأسماء المدن والقرى والمواضع في عشرة أصناف ، منها: أسماء تناخية مثل رام اللّه إلى "أفرايم" ، تسميات تلمودية مثل "خربة المسكنة" إلى خربة مشكنة ، تسميات نسبة إلى حاخامات وأدباء مثل تسمية جبل حيدر (في الجليل الأعلى) باسم "هار هآري" ،و تسميات لرموز صهيونية نحو جبل شرفة (غرب القدس) إلى هار هرتسل ، وتسميات لمحاربين صهاينة مثل جبل قليلة (جنوب مرج ابن عامر) إلى هار جيبوريم ، وتسميات منسوبة لمستعمرات صهيونية مثل جفعات يروحام ، نسبة إلى مستعمرة في المنطقة ، وتسميات محرّفة عن العربية مثل تل أبو هريرة في منطقة غزة إلى هارور ، وتسميات مترجمة إلى العبرية مثل جبل جرادة (النقب): هار جوفاي ، وتسميات لزعماء إسرائيليين أو أجانب مثل أطلاق اسم الوزير موشي حاييم شابيرا على تل المشارف في القدس. (عبدالكريم ، ٢٠٠١م:٨٠-٨٦). وأشار إلى" أن تغيير الأسماء للأسف أحدث أثره في الفلسطينيين والعرب ، فاليوم يطلقون الأسماء اليهودية على الأماكن بدلا من أسمائها الأصلية العربية.

أشار كنفاني إلى سياسات تغيير الأسماء ، بقوله

«ظهر يوم الثلاثين من حزيران ، ١٩٦٧م ، كانت سيارة " الفيات " الرمادية التي تحمل رقما اردنيا أبيض تشق طريقها نحو الشمال ، عبر المرج الذي كان اسمه مرج بن عامر قبل عشرين سنة ، وتتسلق الطريق الساحلي نحو مدخل حيفا الجنوبي . وحين عبر الشارع ودخل

إلى الطريق الرئيسي انهار الجدار كله ، وضاعت الطريق وراء ستار من الدموع ، ووجد نفسه يقول لزوجته "صفية ":

-" هذه هي حيفا يا صفية !"» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٠).

غسانُ هنا يذكر عبارة "قبل عشرين سنة" ليشير إلى سنة ١٩٤٨ م حين تم تغيير أسماء المدن والقرى الفلسطينية من العربية — الفلسطينية إلى العبرية بغية طمس الذاكرة الثقافية الفلسطينية وانتزاع الماضي العربي من الأذهان. كما انه تعمد في عدم ذكر الاسم الصهيوني لمرج بن عامر لعدم اعترافه بالأسماء المزورة. وتتكرر عبارة " قبل عشرين سنة" كثيرًا في الرواية لتدل على هول الحدث والتأريخ الذي لن يُمحى من الذاكرة الفلسطينية. وغسان هنا يحضّ على عدم نسيان الأسماء الأصلية ويتعمد في التأكيد على استخدام هذه الأسماء كيلا تتقطع الذاكرة الجمعية الفلسطينية وتتلاشى مع الأيّام والسنين وبالتالي فالاحتفاظ بالذاكرة ونقلها للجيل القادم يُعَدُّ نوعاً من المقاومة وقدر الشعوب المقهورة أن تقاوم.

ويذكر غسان أيضًا

«وأخذت الأسماء تنهال في رأسه كما لو أنها تنفض عنها طبقة كثيفة من الغبار: وادي النسناس ، شارع الملك فيصل ، ساحة الحناطير ، الحليصة ، الهادار ، واختلطت عليه الأمور فجأة» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٣).

يهدف الإسرائيليون إلى مسح الهوية الفلسطينية والذاكرة الجمعية للفلسطينيين وقد أطلقوا أسماء يهودية مستمدة من التوراة والتلمود على المدن والقرى الفلسطينية. ولكن غسان لا يعترف بهذه الأسماء ، وفي هذا المقبوس يدخل كنفاني حيفا كله داخل الرواية ، يذكر عدة أسماء عدة ما بين ساحة وشارع وحي ووادي ليشير إلى تغيير جميع أسماء الأمكنة في محاولة مدروسة وممنهجة للقضاء على كل ما يمت للذاكرة الجمعية والثقافية الفلسطينية بصلة. فيعيد هذه الأسماء للواجهة نافضا عنها غبار العبرنة ، وكما نرى كان غسان ملتصقًا بقضيّته ومنهمكًا بالكتابة دفاعًا عنها لأنه يعي أهمية الحفاظ على الذاكرة.

وفي جزء آخر من الرواية يقول

«وفجأة جاء الماضي ، حادا مثل سكين ، كان ينعطف بسيارته عند نهاية شارع الملك فيصل (فالشوارع بالنسبة له لم تغيّر أسماءها بعد) متجها نحو التقاطع الذي ينزل يسارًا إلى الميناء ، ويتجه يمينًا نحو الطريق المؤدي إلى وادي النسناس» (كنفاني ،٢٠٠٤ م:١٤).

إنَّ الشوارع بالنسبة لسعيد لم تغيّر أسماءها بعد ، وهذا ليس غريبًا فالإنسان شديد الاتصال ببيئته الّتي نشأ وترعرع بها ، وإذا فصلته القوة عن هذه البيئة جسميًا فلاتستطيع أن تفعل ذلك روحيا ففور عودة "أبو خالد" لحيفا يأخذه الحنين لأحضان الماضي أيام العزة والكرامة ويعي أن ما جرى كان عملية اغتصاب عنيف وأن عملية تهجير الشعب الفلسطيني من دياره هي عملية سياسية ضمن مشروع استيطاني استعماري يقوم على أيديولوجيا واضحة ومحددة. ونفهم من هذا المقبوس أن الذاكرة ليست مجموعة من الذكريات الجامدة فحسب بل تصاحب هذه الذكريات العديد من الأحاسيس والمشاعر.

تهديم الأبنية أو إخلائها والسيطرة عليها

شرعت السلطات الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧م ، باتباع سياسة ممنهجة تجاه الفلسطينيين؛ بهدف إحكام السيطرة على الأرض وعبرنة ذاكرتها وبالتالي إرساء واقع جديد على الأرض؛ وذلك من خلال سلسلة من القرارات والإجراءات التعسفية ومن بين هذه الإجراءات هدم المنازل والمنشآت الفلسطينية أو تخليتها وإهمالها لتكون خرابة. ولم يغفل غسان كنفاني عن تسجيل هذه السياسة في روايته:

«طول الطريق كان يتكلم ويتكلم ويتكلم ، تحدث عن زوجته عن كل شيء عن الحرب وعن الهزيمة وعن بوابة مندلبوم التي هدمتها الجرارات. وعن العدو الذي وصل إلى النهر والقناة ومشارف دمشق خلال ساعات» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٠).

ولما احتل الكيان الصهيوني القدس العربية عام ١٩٦٧م أزال آثار بوابة مندلبوم بالكلية وفتح المدينة على كل أجزائها ليسيطر عليها بالكامل (أشتية ، ٢٠١١م: ١٢٤) السيطرة على المكان وذاكرة المكان وبالتالي حذف الذاكرة الجمعية من سياسات الكيان الصهيوني ، ويأتي تهديم بوابة مندلبوم لهذا الغرض ولكن غسان الذي تعرضت بلاده للغزو وتراثه للطمس ، يرى المقاومة القلعة الأخيرة لحماية تراث هذه البلاد وتاريخها وثقافتها من الطمس والتحريف ودفاعًا عن وجودها وحق شعبها في الحياة بحرية وكرامة. ويكتب عن مدرسة مهمولة كانت تضج بالطلاب العرب:

«أما سعيد وصفية فقد كانا في ذلك اليوم بالضبط يبكيان معًا ، بعد أن عاد سعيد للمرة المئة فاشلاً ، عاجزا عن الدخول إلى حيفا ، لينام بعد قليل مرهقًا ممزقًا شبه غائب عن الوعي من فرط التعب ، في الغرفة التي كانت صفًا سادسًا بمدرسة المعارف الثانوية ، مقابل

جدار السور الذي يحمي سجن عكا الشهير ، على شاطئ البحر الغربي» (غسان كنفاني ، ٢٠٠٤م:٤٥).

سجن عكا هو مبنى فلسطيني تاريخي ، ونوم سعيد في الغرفة التي كانت صفًا سادسًا بمدرسة المعارف الثانوية ، يدل على حنينه للوطن والأرض والتشبث بالهوية الفلسطينية ، وأيضًا علامة على إهمال المباني الفلسطينية والتدريس بعد ما تم تهويد المدينة والقضاء على عروبتها وذاكرتها وخصوصياتها العربية والإسلامية. يحاول الكيان الصهيوني بكل ما أوتي من قوةٍ أن يفصل المواطن الفلسطيني عن كل شيء يربطه بما قبل سنة ١٩٤٨م.

إعادة بناء الأفكار

نقصد من "بناء الأفكار" تحويل الشخص عن قيمه والتلاعب في أفكاره وآرائه أو تعديل أنماطه السلوكية وقناعاته ، وتبنيه لقيم أخرى جديدة تفرض عليه من قِبَل شخص أو مجموعة من الأشخاص أو مؤسسة أو دولة عن طريق التلاعب بالعقل البشري من خلال العديد من الأساليب والطرق التي تستخدم في العادة في التعليم وإيصال المعلومات. يقول الصحافي الأميركي إدوارد هنتر: «القصد هو تغيير العقل بصورة جذرية بحيث يصبح صاحبه دمية حية (انسانًا آليًا) من دون أن يلحظ هذا العمل الشرير من الخارج. الهدف هو إنشاء آلية في اللحم والدم بمعتقدات جديدة وآلات تفكير جديدة تولج في جسم أسير. ماترمي إليه هو البحث عن عرق مستعبد يمكن الوثوق به على عكس عبيد الأزمنة الغابرة بألا يثور أبدًا وأن يكون خاضعًا دائمًا للأوامر مثل حشرة تسيرها عرائزها» (تيلر ، ٢٠١٧م ،١٧). السلطات الإسرائيلية تحاول صناعة جيل فلسطيني يمكن أن ينسى وطنه الفلسطيني. ومن الأمثلة الواردة في الرواية:

«أي خلدون يا صفية؟ أي خلدون؟ ، أي لحم ودم تتحدثين عنهما ، وأنتِ تقولين خيار عادل ، لقد علموه عشرين سنة ، كيف يكون يوما يوما وساعة ساعة مع الأكل والشرب والفراش ثم تقولين خيار عادل إن خلدون ، أو دوف ، أو الشيطان إن شئت ، لا يعرفنا! أتريدين رأيي؟ لنخرج من هنا ولنعد إلى الماضي. انتهى الأمر. سرقوه» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:٤٩-٤٨).

إن كنفاني جعل "خلدون" بصورة ما معادلا رمزيا للذاكرة الفلسطينية ، فكما تم الاستيلاء على هذه الذاكرة ، كذلك أيضًا تم الاستيلاء على خلدون من قبل أسرة يهودية مهاجرة من بلاد بعيدة ، بحيث أخضعته منذ تلك اللحظة لغسيل دماغ شامل ، اي بالضبط

كل ما قام ويقوم به الكيان الصهيوني في فلسطين من استيلاء واستغلال وشطب لذاكرة المكان وتغيير لتاريخه. هذه بالضبط هي الفرضية الأساسية التي اشتغل عليها كنفاني في هذه الرواية. أي البرهنة على استحالة استعادة الحق المغتصب من غير مقاومة. وهي بالضبط فكرة تتناقض تماما مع السياسة التطبيعية التي لا تقترب من مفهوم المقاومة. ويورد غسان كنفاني أيضًا:

«لا حاجة لتصب غضبك علي، فأنا عربي أيضًا، ويافاوي مثلك، وأعرفك فانت ابن البلدة...ادخل لنشرب القهوة» (غسان كنفاني، ٢٠٠٤م:٥٢).

يشير هذا المقبوس إلى المواطنين العرب (فلسطينيو ٤٨) في إسرائيل الذين قرروا الانخراط في المجتمع الجديد، وارتضوا أن يحملوا الهوية الإسرائيلية، هؤلاء العرب تعرضوا لعملية إعادة بناء الأفكار بحيث أصبحوا يشاركون في الانتخابات وحاولوا الاندماج في المجتمع الإسرائيلي، لكن مع هذا عاشوا فيما يشبه السجن الكبير، وتعرفهم الدولة كمواطنين عرب، وأحيانا تشير لهم كطوائف، فهي لا تعترف بهم كأقلية قومية أصلية ذات حقوق جماعية. ويكتب غسان كنفاني أيضًا:

«وأخذ صوت نشيجها يعلو شيئًا فشيئًا، ولكنها التزمت الصمت، وأمضيا تلك الليلة دون كلمة، يستمعان معا إلى أصوات الأحذية العسكرية تقرع الطرق، وإلى الراديو يظل يعطي الأوامر» (كنفاني، ٢٠٠٤م:٢٥)

اهتمت المنظمة الصهيونية العالمية منذ تأسيسها بالإعلام؛ وذلك من أجل الحثّ على الهجرة إلى فلسطين؛ وبعد الاحتلال والسيطرة نظر الإعلام الإسرائيلي للصراع مع الفلسطينيين، من منظار أمني وهوياتي، وكثيرًا ما يكتفي بما تمليه عليه الأجهزة الأمنية من معلومات، مستخدمة التضليل ومحاولة غسل الأدمغة وبناء الأفكار وبالتالي القضاء على الذاكرة؛ والراديو هنا أحد أدوات النظام الإسرائيلي لتزوير الذاكرة الجمعية، كما ساهم في ترسيخ آراء مختلفة ومشوشة في نفوس الجمهور العربي الفلسطيني الذي ظل مكشوفًا، وإلى حدٍّ كبير، للإعلام الإسرائيلي، ولم تكن هناك وسائل أخرى قادرة على التصدي، ومقاومة هذا التأثير.

ويورد غسان كنفاني أيضًا

«كانت لغتها الانكليزية بطيئة، وذات لكنة أقرب إلى الألمانية، وتبدو، إذ تتلفظ بها، كما لو أنها تنتشل كلماتها من بئر غبار سحيقة الغور» (كنفاني، ٢٠٠٤م: ٣٢).

هناك تأكيد على المكان والذاكرة من أوَّل الرواية إلى نهايتها فعنوانها "عائد إلى حيفا" يشير إلى علاقة الإنسان بالمكان أو الأرض بشكل مستقيم. يريد أن يظهر أنَّ هذا الكيان جلب سكانا من بلاد مختلفة لا يجيدون اللغة الأصلية لهذه البلاد بهدف محو الهوية الفلسطينية ، لذلك هو يخوض حرب الذاكرة مع الشعب الفلسطيني.

التغيير الديموغرافي

الملكية عنصر هام من عناصر الهوية الثقافية والذاكرة الجمعية لأية أمة إذ لا وجود للذاكرة الجمعية دون وجود ملكية جغرافية وهوية ثقافية ، فالملكية «تمثل الحيز الجغرافي وحدود الدولة التي تميز وجودها المادي ، وبالحفاظ على هذه الملكية تحفظ الذات المالكة مقومات وعناصر وجودها ، وبفقدانه يشحب وجه تلك الذات وتمسح قسماتها وتختفي وتفقد دورها الحضاري ، وحالة الاستعمار خير مثال على هذه الحالة ، فالذات المستعمرة لا تفقد الأرض فحسب ، ولكنها تفقد التراث والتاريخ أيضا» (حاج علي ، ٢٠١٧: ٦٦).

والتغيير الديمغرافي المقصود فهو «القيام بأفعال وتصرفات من شأنها تغيير التركيبة السكانية في منطقة ما ، بحيث يتم إخلاء مجموعات سكانية ذات عرق أو مذهب أو دين معين ، وإحلال غيرهم ممن لديهم دين أو عرق أو مذهب مختلف ، عبر وسائل عدة من ترغيب وترهيب» (زين الدين ، ٢٠١٦م:٢).

كان الصراع الفلسطيني— الصهيوني منذ بدايته صراعا على الوجود واتخذ أشكالاً وصورًا أهمها الأرض والسكان؛ وقد اعتبر الكيان الصهيوني منذ قيامه أن الفلسطينيين يشكلون خطرًا ديموغرافيًا عليه. فكان الهدف الأساس للحركة الصهيونية أولاً ، وإسرائيل لاحقا ، هو الاستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من أرض فلسطين واستعمارها بأكبر عدد ممكن من المستوطنين القادمين في موجات متلاحقة من المهاجرين. وعلى هذا الأساس فإن العاملين الجغرافي والديموغرافي تبقى لهما الكلمة الأخيرة في الصراع الذي تخوضه الصهيونية في فلسطين ، وأما الممارسات الإسرائيلية على الأرض متمثلة في تهجير الفلسطينيين تهجيرًا قسريًا من قراهم ومدنهم وانتزاع الأرض من أصحابها الأصليين والسيطرة عليها بكافة الوسائل والطرق وأحداث تغييرات في الخريطة السكانية ، بما يتلاءم مع حاجات الكيان الصهيوني الأمنية واستمرار سلطته السياسية.. لذا فإن التغيير الديمغرافي وما يتبعه من تغيير في المفاهيم والقضاء على الذاكرة الجمعية والقيم الاجتماعية المتوارثة كاف لتفتيت تراث أي منطقة.

يشير كنفاني إلى التغيير الديمغرافي بقوله

«وحين عاد"إيفرات كوشن"مع ميريام إلى نزل المهاجرين كانت"ميريام" قد قررت العودة إلى إيطاليا ، ولكنها لم تفلح طوال تلك الليلة ، ولا في الأيام القليلة التي أعقبت ذلك اليوم ، في إقناع زوجها بذلك ، وكانت دائما تخسر النقاش بسرعة ، ولا تستطيع إيجاد الكلمات التي تعبر عن رأيها ، وتشرح حقيقة دوافعها ، إلا أن عادت فتغيرت بعد ذلك بأسبوع واحد ، فقد عاد زوجها من زيارة لمكتب الوكالة اليهودية في حيفاء بخبرين مفرحين: لقد أعطي بيتًا في حيفاء نفسها ، وأعطي مع البيت طفلاً عمره خمسة شهور» (غسان كنفاني ، ٢٠٠٤م ، ٤٤-٤٣).

كان أهم أداة للتغيير الديمغرافي هو الاستيطان ، فـ "إيفرات كوشن" و"مريام" هما مستوطنان ذاكرتهما فارغة من كل شيء يمت بصلة لفلسطين. بدت شخصية "إيفرات كوشن" في الرواية متأثرة بشكل كبير بالدعاية الإسرائيلية. فهو لم يكن يصدق أن تلك الأرض كانت مجرد صحراء أعادت الوكالة اليهودية اكتشافها بعد ألفي سنة. و"مريام" زوجة إيفرات كوشن بدت شخصيتها بمظهر مختلف عن زوجها هي امرأة يهودية ، جاؤوا بها من الدنمارك الى فلسطين عنوةً ، وأقنعوها بأن تبقى لتسكن بيتًا جميلا في حيفا ، هو بيت سعيد وصفية. وبعد أن عرفوا بعقمها وعدم قدرتها على الإنجاب ، عرضوا عليها أن تتبنى طفلاً عربيًا تركه أهله عندما هربوا ، كي يُنسوها منظر الطفل العربي الذي رأته يُرمون به في شاحنة نقل الجثث كأنه قطعة من خشب. كانت شخصية زوجها لا تقيم أي اعتبار للإنسان الفلسطيني ولن تشعر تجاهه بأي ذنب ، وعلى الرغم من أن كليهما ساهموا بتدمير الذاكرة الفلسطينية من خلال قبول الاستيطان إلا أن غسان فرق بينهما وقدّم صورة شبه ايجابية من مريام بعيدًا عن الانفعالات والشعارات والخطابات الرنانة فإنه كان يشتغل على بناء مشروعه الروائي بعقلية الباحث العلمي.

ويكتب كنفاني في جزء آخر من روايته:

«أخذها زوجها إلى الرصيف الآخر وسألها:

-"كيف عرفت أنه طفل عربي؟"

-"ألم تر كيف ألقوه في الشاحنة كأنه حطبة؟ لو كان يهوديا لما فعلوا ذلك"» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:٤٢).

ماورد في المقبوس يشف عن جريمة انسانية تستهدف الانسان بهدف حذف ارتباطه مع الأرض وقد أكد غسان على الطفل لأنه المستقبل المرجو للتغيير. لقى اختار غسان «رجلاً وامرأة من المهاجرين الأوروبيين الهاربين من مذابح النازية ، هما إيفرات كوشن وزوجته

ميريام. إنهما يهوديان عاديان وإن كانا يحملان مسؤولية الاستيطان في أرض على حساب أهلها فهما في نفس الوقت ليسا من عصابات الصهيونية ، بل إنَّ الحكم الصهيوني كان خدعة لهما بدرجة من الدرجات. إنَّ ميريام البولندية الأصل ترى في الطفل العربي المقتول صورة أخرى من أخيها الذي قتله النازيون في أوشفيتز ، وهي ترغب في العودة مرة أخرى إلى أوروبا (عاشور ، ٢٠١٧م:١٨٥). فبناءً على ما ورد أصبح للطفل دور مهمّ في المقاومة ، ويورد غسان:

«حين فتح رجل من الهاغاناه ، معه رجل عجوز له وجه يشبه الدجاجة ، باب منزل "سعيد س." في الحليصة ، ووسع الطريق أمام "إفرات كوشن" وزوجته ، القادمين من بولونيا ، ليدخلا إلى ما صار منذ ذلك اليوم منزلهما المستأجر من دائرة أملاك الغائبين في حيفاء. (غسان كنفاني ، ٢٠٠٤م:٣٧).

رجل من الهاغاناه يوسع الطريق لزوجين من بولونيا في أرض فلسطين ، يريد أن يشير إلى أنَّ هؤلاء لا يملكون حقا وأرضًا فقد جمعتهم الحركة الصهيونية من أصقاع العالم بهويات مختلفة لتغيير الديمغرافية وبالتالي تشويه الذاكرة الجمعية الفلسطينة. أما تشبيه وجه العجوز بالدجاجة لم يكن للاستهزاء بل ليشير إلى غرابة الوجه الذي لا يتلائم مع البيئة الفلسطينية. ثم إنَّه تعمد في ذكر العجوز ليقول أنَّ هؤلاء لم يلدوا في هذه الأرض ولم يأتوا أطفالا لا يدركون بل جائوا كبارًا ناضجين. لقد حاول الكيان الصهيوني بناء الذات اليهودية على أسس جديدة ، بحيث تتشكل شخصية يهودية/ صهيونية قومية لا تأثير فيها لحدود المنافي.

ومن الأمثلة الأخرى الواردة في الرواية

«وذهب رفيق من رفاقه إلى شارع اسكندر عوض حيث كتب خطاط هناك اسمه "قطب" يافطة صغيرة تقول إن بدر اللبدة استشهد في سبيل تحرير الوطن وحمل طفل ما تلك اليافطة في مقدمة الجنازة وحمل طفلان صورته ، وفي المساء أعيدت الصورة إلى البيت ، وربط شريط الحداد الأسود على زاويتها اليمنى» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:٥٣).

لقد ذكر اسم الخطاط (قطب) ليبين بأنه عربي ويؤكد على عروبته والا فهو شخصية غير مهمة في القصة وكان بإمكانه استخدام مهنته (الحداد) فقط ولكنه أراد تثبت الذاكرة التواصلية أيضًا. وفي جزء آخر يقول:

«وهو على أي حال — لم يقابل شخصًا عربيًا في حياته كلها ، بل إنه صادف أول عربي في حيفا نفسها بعد احتلالها بحوالي عام ونصف العام. وقد جعله ذلك الأمر يحتفظ طوال الأيام الحرجة بصورة فريدة وغامضة عما كان يجري حقًا» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:٣٩).

يُريد غسان أن يشير إلى إخلاء مدينة حيفا من العنصر العربي الأصيل فيها ، وبالتالي القضاء على الذاكرة من خلال تشتيتها بين المدن والبلاد وتكوين ذاكرة عبرية جديدة.هكذا تتجسّد همومه وهموم الشعب الفلسطيني ويستقطب قلقًا إنسانيًا ولم يتفاعل في داخله قلقه فحسب بل قلق مجتمعه وأمته وقلق انساني عام.

ويشير أيضًا

«لقد فتحوا الحدود فور أن أنهوا الاحتلال فجأة وفورًا ، لم يحدث ذلك في أي حرب في التّاريخ ، أتعرفين الشّيء الفاجع الذي حدث في نيسان ١٩٤٨ ، والآن بعد لماذا؟ لسواد عينيك وعيني؟ لا. ذلك جزء من الحرب. إنّهم يقولون لنا: تفضلوا انظروا كيف أنّنا أحسن منكم وأكثر رقيًا. عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدمًا لنا ، معجبين بنا ولكن رأيت بنفسك: لم يتغير شيء كان بوسعنا أن نجعلها أحسن بكثير» (كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٢).

هذا المقبوس يشير إلى الاعمار الذي شهدته فلسطين في المناطق الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية وطبعا هذا الإعمار يكون على حساب الشكل الطبيعي للمدينة ، اعمار يغير هوية المدينة ويسلخها عن هويتها ، وبالطبع غسّان لا يغريه هذا الاعمار بل يفضل الشكل الأولي الذي يتضمن ذكرياته وذكريات بني قومه ويميل للذاكرة التي صنعها أبناء وطنه. فهو حينما يتحدث عن عائلة فلسطينية فإنما ليعبر عن آلام وآلام أمته المفتقدة للهوية والمسلوبة الإرادة. ويظهر ذلك يظهر جليًا في النص التالي: « وحين كان يقود سيارته وسط شوارع حيفا ، كانت رائحة الحرب ما تزال هناك بصورة ما ، غامضة ومثيرة ومستفزة . وبدت له الوجوه قاسية ووحشية ، وبعد قليل اكتشف انه يسوق سيارته في حيفا دون أن يشعر بأن شيئا في الشوارع قد تغير »(كنفاني ، ٢٠٠٤م:١٢).

النتائج

يصل البحث من دراسة "عبرنة الذاكرة الجمعية في رواية "عائد إلى حيفاء لـ"غسّان كنفاني" إلى النتائج الآتية:

- هناك ثلاثة عوامل نخرت الذاكرة الجمعية الفلسطينية هي تغيير الأسماء والتغيير الديمغرافي والاستيطان.

- كان غسان يؤكد على الحفاظ على الذاكرة الجمعية ونقلها للأجيال القادمة وصيانتها من الضياع والاندثار ، وكان موقفه سلبيا من نخر هذه الذاكرة.

-إنّ غسان كنفاني يحمل معه المكان في فكره وأحاسيسه ، والمكان لديه ليس مجموعة من الذكريات الجامدة فحسب بل تصاحب هذه الذكريات العديد من الأحاسيس والمشاعر ، ممّا يدلّ على تمازج بين أنا الشّاعر وذاكرة المكان.

-كان غسان كنفاني يعبر عن ذاته الوطنية المسلوبة الإرادة ويعاني فقدان الهوية والذاكرة الجمعية الفلسطينية وإصابة كيانهم العربي الفلسطيني بالشرخ والتشقق ، فسيطر هاجس الهوية على روايته "عائد إلى جيفا" التي عالجت أزمة الذاكرة الفلسطينية في ظل الصراع العربي الإسرائيلي.

-شكلت رواية "عائد إلى حيفا" علامة بارزة في الأدب المعبّر عن أنماط الشخصية الفلسطينية وهمومها المواكب لأحداث القضية الفلسطينية بتفاصيلها ، والحامل لهواجس انشطار الذات والهوية الوطنية.

المصادر والمراجع

الكتب

أشتية ، محمد (٢٠١١م). موسوعة المصطلحات والمفاهيم الفلسطينية ، عمان ، ط ٣ ، دار الجليل.

إفاية ، محمد نور الدين(١٩٨٨م).الهوية والإختلافات في المراة: الكتابة والهامش ، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق.

بعلي ، حفناوي (٢٠٠٨م). مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، بيروت: الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف.

تيلر ، كاثلين (٢٠١٧م) ، غسيل الدماغ ، ترجمة سامر عبدالمحسن الأيوبي وعبدالقادر مصطفى عيسى ، الرياض ، العبيكان للنشر.

زين الدين ، عبدالمنعم (٢٠١٦م) ، التغيير الديمغرافي ، تركيا ، مركز جسور للدراسات.

عاشور ، رضوى (٢٠١٧م).الطريق إلى الخيمة الأخرى: دراسة في أعمال غسان كنفاني ، القاهرة دار الشروق

عبد العظيم ، عبد العظيم أحمد (٢٠١٢ م) ، التخطيط اللغوي لتأصيل الهوية العبرية في فلسطين ، الدوحة ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

عبدالكريم ، ابراهيم (٢٠٠١م).تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية ،دمشق ، منشورات اتحاد الكّتاب العرب .

الغذامي ، عبدالله (٢٠٠٥م). النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ط ٣ ، بيروت ، المركز الثقافي العربي.

قنسوة ، صلاح (٢٠٠٧م). تمارين في النقد الثقافي ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة.

كنفاني ، غسان (٢٠٠٤م). عائد إلى حيفا ، ط ٦ ، مؤسسة الأبحاث العربية ومؤسسة غسان كنفاني الثقافية.

رسائل وأطروحات

حاج علي ، مازيا (٢٠١٧م).الهوية وسرد الآخر في روايات غسان كنفاني – رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه في الآداب واللغة العربية ، جامعة محمد خيضر بسكرة.

الدوريات

أبو خضير ، ناصر الدين (٢٠١٦م) ، أسماء قرى القدس ، دراسة لغوية دلالية ، *مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب* ، المجلد ١٣العدد ٢ ، ص ص ٣٥٥-٣٨٢ .

الأقطش ، عبد الحميد ، التوليد اللغوي على وزن (فعلنه) في الاستعمال العربي المعاصر ، مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد ٧٩ ، ديسمبر ٢٠١٠م ، ٧٥-٤٩.

كوساح ، زهير (٢٠١٥). " نظريات الذاكرة الجمعيةوتطورها في ميادين العلوم الإنسانية" ، مجلة دراجومان لدراسات الترجمة.

كوساح ، زهير (٢٠١٨م) " وسائط الذاكرة الجمعية ووظائفها ، مجلة دراجومان لدراسات الترجمة.

المصادر الإنجليزية

Erll, Astrid, "Literaturwissenschaft," in: Christian Gudehus, Ariane Eichenberg & Harald Welzer (eds.), Gedächtnis und Erinnerung: Ein Interdisziplinäres Handbuch (Stuttgart: Springer; J.B. Metztler, 2010), p. 288.

Assmann,J. (1992). Das kulterelle Gedaechtnis. Munich: CH Beck.

Mistzal, B.A. (2003). Theories of social Remembering .London: Open university press.

Kaamen, M.(1995). Review of Frames of Remembrance. Historical Theory. No 34

Halbwachs, M. (1980). The Collective Memory . New York: Harper and Row.

Jan Assmann and John Czaplicka, (1995) "Collective Memory and Cultural Identity."New German Critique 65

Sources and references

books

AShtayyeh, Muhammad (2011 AD), Encyclopedia of Palestinian Terms and Concepts, Amman, 3rd Edition, Dar Al-Jalil.

Efaya, Mohamed Noureddine (1988 AD). Identity and Differences in Women: Writing and Margin, Casablanca: Africa, the East.

Baali, Hafnawi (2008). An Introduction to Comparative Cultural Criticism Theory, Beirut: Arab House for Science and Difference Publications.

Teller, Kathleen (2017 AD), Brainwashing, translated by Samer Abdel Mohsen Al-Ayoubi and Abdel-Qader Mustafa Issa, Riyadh, Obeikan Publishing.

Zayn al-Din, Abdel Moneim (2016 AD), Demographic Change, Turkey, Jusoor Center for Studies.(In Arabic).

Ashour, Radwa (2017 AD), The Road to the Other Tent: A Study in the Works of Ghassan Kanafani, Cairo Dar Al-Shorouk

Abdel Azim, Abdel Azim Ahmed (2012 AD), Linguistic Planning for the Rooting of Hebrew Identity in Palestine, Doha, Arab Center for Research and Policy Studies.

Abdul Karim, Ibrahim (2001 AD), The Judaization of the Land and the Names of Palestinian Landmarks, Damascus, Publications of the Arab Writers Union.

Al-Ghadami, Abdullah (2005 AD). Cultural Criticism: Reading in the Arab Cultural Forms, 3rd Edition, Beirut, Arab Cultural Center.

Qanswa, Salah (2007 AD), Exercises in Cultural Criticism, Cairo, General Egyptian Book Organization, Family Library.

Kanafani, Ghassan (2004 AD), Returning to Haifa, 6th Edition, Arab Research Foundation and Ghassan Kanafani Cultural Foundation.

Theses

Haj Ali, Mazia (2017 AD), The Identity and Narrative of the Other in Ghassan Kanafani's Novels, - A thesis submitted for the award of a Ph.D. in Arabic Language and Literature, Mohamed Khider University of Biskra.

periodicals

Abu Khdeir, Nasir al-Din (2016 AD) The names of the villages of Jerusalem, a semantic linguistic study, Journal of the Union of Arab Universities of Literature, Volume 13, Issue 2, pp. 355-382.

Al-Aqtash, Abd al-Hamid, Linguistic Generation on Weight (we did it) in Contemporary Arab Use, The Jordanian Arabic Language Academy, Issue 79, December 2010, 75-49.

Koussah, Zuhair (2015). "Theories of collective memory and its development in the fields of human sciences", Dragoman Journal of Translation Studies.(In Arabic)

Koussah, Zuhair (2018 AD) “Media of collective memory and their functions, Dragoman Journal of Translation Studies.(In Arabic)